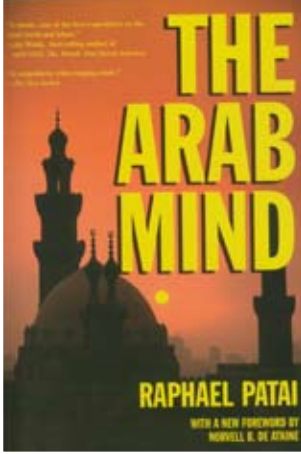


العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



الفصل السادس

القيم البدوية

1. حسن الضيافة

يرجع تاريخ حسن الضيافة لدى البدو إلى زمان المرويات التوراتية وما قبلها. فالمنحة العظيمة التي تلقاها إبراهيم من الرب كانت لحسن الضيافة التي فاقت الحد الطبيعي، ويظهر ذلك من سياق الإصحاح الثامن من سفر التكوين والذي تضمن وصفا دقيقا للوليمة التي صنعها إبراهيم لزواره الإلهيين بحيث تجاوز وصف الوليمة وصف الحوار الذي دار بينه وبين الرب وما قطعه الرب له من وعد بأن يمنحه ولدا من زوجته المسنة سارة. وطويلا ما تناقل الناس ذكر حسن الضيافة لدى البدو، الورثة الحاليين لإبراهيم. ويعدّ حسن الضيافة من الصفات النبيلة التي يحرص حتى أفقر البدو على أدائها بفخر، وتثير الإعجاب حتى في صيغتها المعدلة والمقنّنة التي يصادفها المرء في تقاليد المدينة العربية. لكن دور هذه الخصلة في تقوية الجماعة التي تمارسها ما زال بعيدا عن دائرة الاهتمام. وبصرف النظر تماما عن المكانة الاجتماعية التي تتعزز للمضيف السخي، فإن سلوكه الكريم يضمن له تابعين محتملين وحلفاء سياسيين عند نشوء النزاعات القبلية. وبصياغة أخرى يمكن القول أن حسن الضيافة، شأنه شأن القيم البدوية الأخرى، يخدم تماما الغاية الأهم في الحياة البدوية: تقوية الجماعة.

لا يمكن معرفة أصل خصلة حسن الضيافة لدى البدو سوى عن طريق التخمين. إذ ربما تكون نشأت استجابة لحاجة ماسة من حاجات الصحراء: فمن دونها لا مفرّ من أن يفقد البدوي حياته إن هو ابتعد عن محيطه الحامي المتمثل في الأقرباء والقبيلة. وإن لم تقتله الصحراء ذاتها، فسيلقى حتفه على يد أول جماعة بشرية يصادفها. إن عذاب الفرد الذي فقد أقرباءه وحماته تم تجسيده تراثيا في نداء قبيل: «عقوبتي أعظم من أن تحتل...»

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

وأكون شريدا طريدا في الأرض، ويقتلني كل من يجدني.» فإذا زال الملجأ الحامي الذي يمثله حسن الضيافة فإن كل عربي في الصحراء سيتحول إلى هارب وهائم على وجهه. لأن أعراف حسن الضيافة تقتضي أن يعتبر الهارب ضيفا مكرما يجب على المضيف أن يحميه ولو كان ذلك على حساب حياته نفسها.

وإذا لم يتم استقبال الغريب بحسن الضيافة أو أودي بعد استقباله، فإن ذلك لا يعد إهانة بحق شرف القبيلة وأعرافها فحسب، إنما تمتد إلى الله ذاته الذي يعد الحامي الحقيقي.

وتصل أعراف حسن الضيافة إلى حد مفرط من الشدة والصرامة بحيث تفرض على المضيف تضحيات عظيمة أحيانا، وربما تجبره على الامتناع عن أداء واجب مقدس: كأن يتغاضى عن قاتل سفك دم أحد أقربائه. وتفرض الأعراف على المضيف أن يستقبل في خيمته ويحمي كل من يأتيه سائلا الحماية، وإن كان هذا الضيف أحلّ دمه في قضية تآر تتصل بالمضيف. ومما يقتضيه هذا الواجب المقدس في بعض الأنحاء البعيدة من الجزيرة العربية: أن يقوم المضيف بإتمام التزام أهم من التزامات حسن الضيافة وهو أن يسمح لضيفه بالدخول ضمن الحرم الجنسي لنسائه. وثمة تقارير من جنوب شبه الجزيرة العربية تشير إلى وجود عرف بحسن الضيافة الجنسية تمت المحافظة عليه إلى وقتنا هذا، وسنناقش ذلك في الفصل الثامن.

لا يمكن للفقر أن يعد سببا كافيا يعذر البدوي من القيام بواجبه السامي في أداء حسن الضيافة من خلال إيواء وإطعام الضيف لثلاثة أيام، سواء أكان صديقا أم عدوا، حتى وإن كان هذا الفقر على درجة شديدة كالتى نصادفها في المجموعات القبلية الضعيفة في الصحراء. وثمة قصص متداولة في أعراف البادية تبدو للأذن الأوروبية غير الخبيرة بالعرب وكأنها ما ورد في الكتاب المقدس عن قصة الابن الضال الذي أنفق أمواله تبذيرا لكنها عند البدو تعد فضيلة حقيقية. ومن هذه القصص ما يروى عن أبو زيد الهلالي البطل الأسطوري لقبيلة بني هلال، والذي نفذ واجبات حسن الضيافة من خلال ذبح جماله واحدا تلو الآخر

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

كي يطعم ضيوفه الذين لم يوجه لهم الدعوة أصلا. مما أدى في النهاية إلى أن يخسر كل جماله ويعيش هو نفسه في مجاعة. وتقديرا لشخصيته. قدّم له أقرباؤه في القبيلة عدة جمال بعد أن جعلوه يقطع لهم وعدا بعدم التضحية بها لغرض حسن الضيافة. وبما أنه لم يكن يملك الخيار في الأمر. فقد وافق أبو زيد الهلالي. لكن إدمانه الشديد على حسن الضيافة لم يترك له إلا ناقة لبون. وبعد عدة أيام. وبينما كان أبو زيد جالسا أمام خيمته. لاحظ خيال شخص يقترب في الأفق البعيد. فاقتبأ في خيمته خشية من أن يرى الضيف يقترب ويضطر إلى دعوته ليكون ضيفه. لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال زوجته عما إذا كان الضيف قد تم استقباله في إحدى الخيمات. وبعد أن تلقى الغرب الرفض عدة مرات وأصبح قريبا من خيمة أبو زيد. لم يستطع أبو زيد أن يكبح جماح نفسه وهرع إلى الغرب ورجاه بأن يكون ضيفا في خيمته. وقام بذبح جملة الأخير ليؤدي واجبه السامي وبنال امتياز حسن الضيافة البدوي.

لقد جرت تعديلات كبيرة على حسن الضيافة عند المجموعات البشرية المتحضرة. ففي القرية أو المدينة لا يكون البيت مفتوحا للغرباء كما هو حال الخيمة في الصحراء. ولا يجروء الغرب على أن يطرق بابا في الأحياء المحافظة في المجتمعات المتحضرة التي تشهد انعزالا مشددا ما بين الأجناس المختلفة. وبينما يبقى حسن الضيافة عرفا عاما ربما يمارسه المرء خلال حياته. توجد بالإضافة إلى ذلك مناسبات خاصة في حياة المرء ينبغي فيها ممارسة حسن الضيافة بشكل مفرد. ومن هذه المناسبات: الزواج. الوفاة. الختان. وإتمام بناء البيت؛ ومن الشائع أن يشهد شهر رمضان تزاورا وتبادلا للمأكولات ما بين القرويين. وبالأخص ضمن الفقراء منهم.

سواء أكان ذلك في البدو أو الحضر. يرتبط حسن الضيافة عضويا بالشرف. أو بصيغة أوضح. بمفهوم «الوجه». فممارسة حسن الضيافة على نحو مترف تؤدي إلى «تبييض الوجه». أي الإغلاء من شأنه. وعلى العكس من ذلك. تؤدي عدم ممارستها إلى تسويد الوجه. وإذا ما لم يعامل ضيف ما بحسن الضيافة. فإن ذلك ينعكس على القبيلة أو القرية

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

بكاملها ويلوث سمعتها. كذلك، فإن الإذعان لهذا العرف النبيل لا يتولد من رغبة المضيف بتبييض وجهه فحسب، وإنما ينشأ أيضا عن ضغط الحاجة إلى الحفاظ على سمعة التكتل الاجتماعي الأشمل الذي ينتمي له وعائلته.

وفي قرية كفرالما الأردنية التي تقع على الضفاف المقفرة الشرقية لوادي الأردن، يتم توجيه الضيوف العابرين الذين يودون المبيت إلى أغنياء القرية الذين يقدرّون على توفير وجبة جيدة ومبيت مناسب، حيث يقع على عاتق هؤلاء واجب الحفاظ على سمعة القرية.

ينطبع عرف حسن الضيافة في ذهن الطفل العربي في سن صغيرة. ولم أتمكن إلا مؤخرا من ملاحظة كيف تنغرس هذه الفضيلة عند الصغار -حتى ضمن المجتمعات العربية المتحضرة التي تتبع النمط الأوروبي في العيش. ففي صيف عام 1971 ذهبت لزيارة منزل صديق عربي قديم يسكن أطراف القدس الشرقية. ولما لم يكن لديه هاتف، لم أتمكن من الحصول على موعد مسبق معه. وعندما وصلت للمنزل كان صديقي غائبا هو وزوجته وأبنائه الكبار. ولم يكن هنالك غير ابنته ذات السنوات العشر وابنه ذو السنوات الثلاث عشرة يلعبان في حديقة المنزل الخلفية. وبما أنني لم أزر عائلة صديقي منذ سنتين أو ثلاث، كنت واثقا من أن الأطفال لن يتمكنوا من تذكري، وقلت للطفلين بأنني صديق لوالدهما وأنني سأعود في وقت آخر. لكنهما لم يدعاني أغانر، وأصرا على أنتظر والدهما في المنزل حيث سيعود بعد وقت قصير. ترددت أول الأمر، ثم انصعت لرغبتهما، فأجلساني في غرفة المعيشة وأحضرا لي، دون سؤال، الفستق والفواكه والكعك وقنينة من الكولا وعرضا علي السجائر. وكان عليّ أنا أن أحافظ على استمرار الحديث بالسؤال عن المدرسة وما شابه، لأنهما طبقا كافة أشكال حسن الضيافة بشكل محترف بحيث أجرؤ على القول أنه كان جزءا من شخصيتهما.

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

2. الكرم

يعد حسن الضيافة التعبير الأكثر تحديدا وتمييزا لقيمة أشمل تعود بجذورها إلى البدو. وهي الكرم. ويقوم الكرم المفرد في المجتمع العربي التقليدي بالموازنة ما بين تراكم الثروة ونشوء حالات غير عادية من الغنى والفقير المفترطين. ويقتضي الكرم القيام بنوع محدد من توزيع الثروة من خلال إعادة توزيعها، وهو بذلك يقترب من الواجب الإسلامي المتمثل في دفع الزكاة التي تعتبر أحد «أركان الإسلام الخمسة». والواجب المالي الديني- القانوني الوحيد المفروض على من «يملكون» تجاه من «لا يملكون».

وعلى الرغم من أن هذا الواجب الإسلامي ليس إلا انعكاسا بسيطا للفضيلة البدوية القديمة المتمثلة في الكرم، فإنه مع ذلك يعززها ويؤكد تقبلها العام في أوساط البدو والحضر على نحو سواء. وللزكاة ارتباط وثيق بإيمان الشخص بأن الله مهيمن على مصير الناس على المستويين الفردي والجماعي. وكما جاء في القرآن: [والله فضل بعضكم على بعض في الرزق] (سورة النحل، الآية 71). ومن هنا يكون التوزيع غير المتساوي للثروة مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهذا المبدأ يشكل ضغطا هائلا على الأغنياء ويدفعهم إلى إعطاء الفقراء شيئا من ممتلكاتهم. أما البخل فهو أمر مرفوض ويعتبر من المواضيع الرائجة على ألسنة خطباء الجمعة.

ثمة قرب كبير بين مفهومي حسن الضيافة والكرم بحيث يتم الإشارة إلى كليهما باستعمال المصطلح نفسه أحيانا. وعند السودانيين تشير كلمة الكرم إلى الكرم وحسن الضيافة كليهما دون وجود فارق مميز بين الاثنين. ويعد حسن الضيافة أكثر الوسائل المتاحة للحصول على استحسان المجتمع واحترامه مما يؤدي إلى زيادة الإحساس باحترام الذات. ويتم الحكم على المرء بشكل واسع من خلال الطريقة التي يعامل بها ضيوفه، ومن القيم جدا أن يوصف العربي بأنه مضياف. مما يجعله يتفاخر بذلك أمام ضيوفه عالما بأنهم سينشرون أخبار كرمه. وعندما يكون الأمر كذلك، تنشأ قوانين معقدة جدا

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

وشديدة التفصيل حول عملية استقبال الضيوف. تتضاءل أمامها طقوس تقديم الشاي عند اليابانيين.

يعد البيت المكان الأفضل لإبداء كرم المرء، ففيه يستطيع أن يقدح اهتمامه ومجاملاته اللطيفة ويقدم الطعام والشراب والسجائر والأزهار لضيوفه. لكن ذلك لا يمنع الشخص الذي يحترم نفسه بحق من أن يحمل كرمه معه أينما كان. فإذا ما صادف صديقا في الشارع فإنه سيصر على دعوته إلى بيته، أو إلى المقهى أو المطعم إن كانا بعيدين جدا عن البيت. وإذا ما اعتذر الصديق بأن عليه أن يذهب إلى مكان ما، فإن الرجل الكريم الذي يحترم نفسه سيعرض عليه إيصاله إلى مقصده بسيارة أجرة. وإذا كان يقود سيارته ورأى أثناء ذلك أحد أصدقائه ماشيا فإنه سيتوقف ويصر على إيصاله إلى مقصده وإن كان ذلك في الاتجاه الآخر من الشارع. وإذا التقى صديقان في الحافلة، فسيحاول كل منهما أن يقنع الآخر بأن يدفع أجرته. ومن هذا القبيل ما يحدث من تقديم الهدايا والإنفاق الباذخ للمال في المناسبات.

وبما أن حسن الضيافة والكرم يعتبران فضيلتين مهمتين على النحو الذي سلف، فإن العادات والتقاليد كان عليها التأكيد من أن تبعد الإحباط عن المرء الذي يريد العيش وفق هذه المثل. لأن من يرفض دعوة أو هدية سيصيب المضيف أو المهدى بالإحباط. ومن هنا قضت الأعراف والتقاليد بوجوب قبول الدعوة والهدية. أما الرفض فهو مساوٍ للإهانة والاستخفاف والازدراء. ويمكننا من هذه الملاحظات القليلة أن نستنتج بأن هذه الأعراف تبتعد كثيرا عن الوصية القرآنية بمساعدة من هم في حاجة شديدة وأداء الزكاة.

3. الشجاعة

من الصعب جدا التمييز ما بين البسالة والشجاعة في المفهوم العربي. إذ يبدو أن البسالة تمارس بشكل أساسي في سعي الإنسان من أجل المخاطرة بحياته في سبيل مصلحة المجموعة. بينما تعني الشجاعة أساسا القدرة على تحمل الألم الجسدي أو

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

الضغط العاطفي من خلال ضبط النفس إلى حد لا يمكن فيه لأي صوت أو إيماءة أن تصدر لتخون أداء التجربة التي يمر بها. فعرب السودان، مثلا، ينخرطون طوعيا في أداء عدة ألعاب لاختبار شجاعة الأولاد البالغين، حيث يتعرض هؤلاء للضرب بالسوط، أو تكوى أيديهم بعيدان الذرة المشتعلة والسجائر، أو تجرح بالسكاكين. ومن أجل الهدف ذاته المتمثل في تعويد الأولاد البالغين على الألم الجسدي، يفضل أفراد قبيلة الرولة البدوية تطبيق نوع آخر من العقاب على من يبلغون الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من العمر. ويتمثل ذلك في قيام الأب بجرح ابنه بالسيف أو طعنه بالخنجر. وبذلك لا يكون العقاب مجرد جرح أو طعنة، بل تهيئة للحياة المستقبلية. وفي مصر يشيع استخدام أنواع من العقاب الجسدي مثل الضرب بالأيدي والسياط. وليس غريبا في البلدان العربية الأخرى أن نشاهد عقوبات جسدية قاسية.

وفي هذا السياق يشار إلى الأنواع المختلفة من الختان التي يختبرها الأطفال في البلدان العربية، والتي تعتبر اختبارا لشجاعتهم. وأحيانا يجرى الختان قبل الزواج مباشرة بوجود العروس. وأشد أنواع الختان ألما ما يمارس ضمن بعض القبائل العربية في منطقتي الحجاز وعسير في السعودية، حيث يزال كامل الجلد المغطي للعضو الذكري بالإضافة إلى جلد المنطقة المحيطة به في البطن والقسم الداخلي من الفخذ. وبينما تتم العملية، ينبغي على الشاب أن يبدي شجاعة فائقة، وينهض بعد ذلك مبديا سعادته الغامرة بصوت عالٍ، وملوحا بخنجر طويل! وأثناء إجراء هذه العملية تجلس العروس أمامه ضاربة على الطبل مرددة زغاريد الفرحة بصوت عالٍ. وإذا ما صدرت عنه آهة صغيرة فلها الحق في رفض الزواج منه. وفي البلدان العربية الأخرى التي تمارس فيها عمليات ختان أقل قسوة يبقى عنصر امتحان الشجاعة حاضرا أينما حدثت. (فيما يخص البنات، واللاتي لا يتوجب عليهن أن يتحلين بالشجاعة، يسمح لهن أن يبكين وينتجنن بقدر ما يشأن أثناء عملية الختان).

إن الشجاعة المتوقعة من الشاب أو الكهل العربي هي بالأساس مسألة مظهر خارجي. ويميل الكثيرون إلى القول بأن الطفل العربي الذكر تتم تنشئته اجتماعيا ليتصرف

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

بشجاعة ويظهر بمظهر الشجاع دون أية مراعاة لمشاعره الحقيقية. وسيحسب في عديد الشجعان ما دام قادرا على كبح أية إشارة يفهم منها أنه خائف أو أنه يعاني جراء الألم الذي يمارس عليه. ومع ذلك، فإن العربي، ودون وعي منه بأنه يمارس دورا ما، تجده لا يعلم بأنه يخفي بعض الضعف خلف واجهة الشجاعة. إنه يؤمن بذاته وليس مدركا للضعف الداخلي الذي قد يدفعه إلى مثل هذا السلوك المتكلف. ويظهر الضعف الداخلي جليا، على الأقل من وجهة نظر مراقب للناحية النفسية، عندما تؤدي الاتهامات التي يخشاها إلى رد فعل كبير. فالشخص الذي لا يخاف حقيقة هو الذي لا يبالي باتهامه بالخوف. أما من يكتفي بإخفاء خوفه أو ضعفه فسيتعرض إلى جرح عميق إن هو جوبه باتهام بذلك ويكون رد فعله على الأمر بأن يرد على التحديات والإهانات التي تطعن فيه. ويشار هنا أيضا إلى أن سطحية شجاعة العربي تقف وراء رغبته في أداء أعمال جميلة المظهر وفارغة المضمون من أجل استثارة الخيال. وفي العديد من المناسبات يقوم العربي ببطولات لا تتناسب مع إمكاناته، لكن كثافة مشاعره في لحظة ما تقويه على إنجاز أعمال غير طبيعية.

4. الشرف

كتب الكثير عن الشرف عند العرب، لكن ما لم يتم البحث بإسهاب حوله، على الأقل وفق ما أعلم، هو وجود ترابط عميق بين الشرف وبقاء الجماعة. إن السلوك المشرف هو الذي يساعد على تمتين ترابط الجماعة وبقائها، مما يؤدي إلى تقوية الجماعة وخدمة مصالحها؛ بينما يكون السلوك معيبا عندما يتجه إلى التشويش على الجماعة أو تعريضها للخطر أو عرقلتها أو إضعافها.

إن الشرف في العالم العربي مفهوم عام يظهر بأشكال مختلفة. ومن هذه الأشكال: هناك الشرف الذي يتأتى عن طريق الرجولة المتمثلة بكثرة الأبناء، والشرف الناتج عن أداء أعمال معينة والامتناع عن أخرى؛ ولهذا فإن من الشرف أن يقوم البدو بتدليل جمالهم، ومن العار القيام بأعمال حرفية أو زراعية. وثمة نوع ثالث من الشرف هو المترابط مع السيف،

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

أي: القدرة على الدفاع عن النفس ضد الأعداء بقدر من الشجاعة عموماً. وللحصول على الحماية من قبيلة أقوى يقوم البدوي بدفع الخوّة (مال يدفع مقابل الحماية) وهذا يؤدي إلى تدني شرفه على نحو كبير. ويعد القيام بغارات الغزو وفق الأعراف المرعية عملاً مشرفاً. ومن العار الامتناع عن القيام بذلك. ومن المشرف القيام بحماية القطيع ضد الغارات. وكذلك امتلاك قطع من الأنعام. كما تعد حسن الضيافة والكرم من الأمور المشرفة. ويصيب العار من لا يحسن الضيافة أو يبخل على ضيوفه. ومن المشرف أيضاً: نقاء الدم العربي من جهة الأبوين كليهما. وإظهار حس عميق بالتلاحم ما بين الأقارب في القبيلة. والتصرف بنبل والحرص على «الوجه» من أن «يسود» تحت أي ظرف من الظروف. والعمل بجهد على «تبييض» وجه الفرد ووجه الجماعة التي ينتمي إليها. ومهما كانت التكلفة. على البدوي أن يحمي صورته أمام الناس. وأي أذى يمس شرفه يجب أن يتم الثأر له. وإلا يفقد احترامه تماماً. وبالطبع هنالك الشرف الجنسي للمرأة الذي يشكل ميداناً يمكن من خلاله وصم أسرتها بعار خطير ودائم.

ومن الممكن لمفهوم الشرف أن لا يقتصر على الفرد فحسب. وإنما يتعداه بسهولة إلى العائلة والقبيلة والأمة بشكل عام. وتبعاً لهذا صدرت فتوى عن لجنة الإفتاء في جامع الأزهر في 11 يوليو 1952 تنتقد بشدة من يدعي أن مصر يجب عليها أن تقوم بتحديث موقفها من المرأة وتفعل ما تنتهجه باقي الأمم في القرن العشرين. وهو ما اعتبرته الفتوى تقليداً أعمى يتنافى مع شرف مصر.

إن كل ما سبق من أنواع الشرف. والتي تتميز بوضوح في الحياة العرب وتصبح فاعلة ضمن أوقات ومناسبات عديدة. تحيط بالأنا العربية بشكل محكم وكأنها درع. وكل ثقب في هذا الدرع يهدد بانفلات حلقاته وتداعيتها. لذا كان من الواجب إصلاح الدرع فوراً وبكل تصميم عند حدوث ذلك. وهناك من يرى أن الحساسيات المفرطة التي يبديها العربي تجاه أي تعدّ على شرفه إنما هو نوع من جنون الارتياح. وهناك من ينطلق من وجهة نظر إيجابية فيرى ذلك تعبيراً عن الفخر وإصرار على التمسك بمعايير أخلاقية عالية. ولا يمكنني أن نتخذ

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

موقفاً من هذه القضية، لكن يجب أن أشير إلى ذلك باعتباره إحدى الخصائص المهمة من خصائص العقلية البدوية التي تركت أثرها على العقل العربي بشكل عام.

ثمة مكونان لظاهرة الشرف لهما علاقة ببقاء المجموعة، وهما: الرجولة، وروح القرابة. وفي الهيكلية القيمية البدوية يزداد المرء شرفاً عندما يكثر أبنائه - الذكور منهم بخاصة. وعادة ما يفسر ذلك بأن كثرة الأبناء دليل مادي على الرجولة.

إن الرجولة من الصفات المهيمنة التي يتمسك بها المرء وإن كان ذلك على حساب التضحية بقيم أخرى. وأي ذم يوجه للرجولة يعتبر عاراً كبيراً إلى حد يفرض على المرء أن يبذلي أقصى جهده لإزالة أي ظل من الشك قد يحوم حول رجولته، وإن كان ذلك يجعله مسؤولاً عن التسبب بعار آخر لنفسه. وتعد العنانة سبباً من الأسباب القليلة التي يمكن للمرأة أن تستخدمها من أجل الحصول على الطلاق. وإذا ما صحت دعوى الزوجة يوافق الزوج على طلاق هادئ لا يعرضه للعار على الملأ. أما إذا كانت الزوجة كاذبة فالزوج يصاب بالاستياء الشديد ويصر على إثبات كذبها. وإن كان ذلك يفرض عليه أن يقوم بعمل جنسي دون مراعاة للخصوصية العرفية المطلوبة. وثمة تقارير حول كيفية القيام بذلك لكنها مبهمة (في أوساط قبيلة أولاد علي في صحراء مصر الغربية)، وتتضمن العملية أن يدخل الزوجان إلى ما يدعى «بيت الشنعة» ويبدو أنه خيمة بسيطة تصنع بطريقة تمكن أحد الجيران الموثوقين، أو أكثر من ذلك، من أن يشاهد ويسمع ما يجري بين الزوجين. ويمكن الافتراض هنا بأن الزوج لا يخضع لهذه المحنة إلا إذا كان عتينا ولم يكن لديه طريقة أخرى لإثبات كذب ادعاء زوجته، وبذلك ينبغي عليه أن ينتهك قيمة مهمة ولكنها أدنى درجة من الرجولة: وهي الخصوصية الجنسية.

وكما يظهر في هذه الحالة، جاءت الرجولة باعتبارها قيمة عليا على مستوى الواقع، وما الذي بإمكانه أن يبرهن على الرجولة أكثر من كون المرء أباً لذرية كبيرة؟ وبهذا المنظار تصبح كثرة الأبناء مدعاة لشرف كبير. لكن سبباً أعمق يكمن خلف الشرف والاحترام الذي

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

يكتسب من خلال الذرية الكبيرة؛ فكل من كثرة الأولاد وما تنم عنه من نشاط جنسي تخدمان الجماعة بشكل مباشر التي يشكل الرجل وذريته جزءاً منها. ففي المجتمع البدوي توجد علاقة متبادلة مباشرة ما بين السلامة. وما يتبع ذلك من فرص البقاء، وبين عدد الذكور القادرين على المشاركة في القتال ضد الغارات. وهذا يضيف إلى الأهمية الكبيرة التي تولى للذرية الذكرية. أما أهمية الأطفال الإناث من وجهة نظر بقاء الجماعة وسلامتها فلا تفرض نفسها إلا بعد مضي جيل: وذلك بأن تقوم الذرية الذكرية التي تنجبها بتعزيز القوة البشرية العاملة في الجماعة.

يمكننا من خلال الاعتبارات السابقة أن نحصل على واحد على الأقل من الأسباب التي تدعو البدو إلى تفضيل زواج الأقارب: إذ يجب الحفاظ على الطاقة الإيجابية لنساء المجموعة على المستوى الداخلي لضمان بقاء الزيادة الطبيعية والتعويض الناجم عن الزواج ضمن المجموعة نفسها دون أن يكون ذلك لصالح مجموعة أخرى قد تكون معادية. وإذا ما تم السماح بحدوث زواج الأبعاد (وهو ما يحدث بشكل استثنائي في المجتمع البدوي)، فسيكون ذلك بمراعاة الأعراف الأبوية المسيطرة على قانون الأنساب. وسيلتحق الطفل المولود في هذا الزواج بنسب أبيه وبهذا ينشأ غريباً كلياً عن الجماعة التي تنتسب أمه إليها. وإذا ما أخذنا هذا المبدأ إلى المستوى التالي، فإن الزواج الأكثر تفضيلاً عند البدو هو ما يحصل بين أبناء العم؛ وهذا الزواج يعني بأن الأطفال الناتجين عنه سيكونون أعضاء في نفس العائلة مما يزيد عددها، وقوتها، ومقامها، وشرفها. وكل شاب يمتلك الحق والواجب في الزواج من ابنة عمه؛ وفي الواقع، يتوقف شرفه إلى حد ما على أداء هذا الواجب. ومرة أخرى نقول: إن الأعراف العشائرية تعتبر الأمور المشرفة هي التي تزيد من ترابط الجماعة، وترفض الأعمال التي تميل إلى إضعافها.

إن الأمر ذاته يقف خلف العلاقات القوية التي تربط العوائل. فشرف عميد العائلة يعتمد إلى مدى كبير على مقدرته في مجال فرض إرادته على أفراد العائلة. ومن يحصل على احترام أفراد عائلته ويقود ولاعهم فإنما هو يحظى بالشرف داخل عائلته وخارجها، وضمن

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

الكتلة الاجتماعية الأشمل -العشيرة أو القرية- التي تنتمي إليها عائلته. والعائلة الموالية والمطبعة قوية ومتحدة في الدفاع عن مصالحها ضد العوائل الأخرى التي تنافسها. كما تدخل ضمن حسابات التكتل الأشمل في ما يخص العلاقات الخارجية. وهكذا، يبرهن مفهوم الشرف على أنه عامل مساهم في عملية تقوية الجماعة.

على مدى التاريخ، ارتبط حس الشرف عميقا بروح الجماعة، وكان كلاهما -وما زال- يدعوان بنفس المصطلح: «العصبية». وتعني العصبية في الأساس «روح العائلة» أو «روح القرابة» (العصبية من الفعل عصب: جمع وربط). ومع أن النبي محمد شجب العصبية باعتبارها منافية لروح الإسلام، فإن ذلك لم يلغها من الوعي العربي. وذهب ابن خلدون إلى حد الاعتقاد بأن العصبية هي الرابط الأساسي في المجتمع البشري والقوة المحرزة الرئيسية في التاريخ.

إن المعنى الأساسي لمصطلح «العصبية» يشير إلى تلاحم القبيلة، أو الروح التي تجمع جماعة تنتمي إلى قبيلة أو ما يتفرع عنها. أما المعنى الثاني «حس الشرف» فتم افتراضه انطلاقاً من أن الإخلاص للجماعة كان يعتبر التعبير الضروري الأفضل عن حس الشرف ضمن المجتمع القبلي العربي. وتقتضي العصبية ضمناً أن يظهر المرء ولاء مطلقاً غير مشروط لأقرانه من رجال القبيلة، إلى حد يجعله يترك زوجته في سبيل ذلك كما يشير أحد الشعراء. إن هذا العرف القبلي الخاص والصارم يفترض، بالطبع، أن القبيلة تشكل وحدة بنفسها وتتصف بالاكتمال الذاتي والفرادة وتعتبر كل القبائل الأخرى ضحية مشروعة وعرضة للغارة والنهب. إن هذه الصفات غير الاجتماعية التي تصاحب العصبية دون ريب، بقيت منطبعة في الشخصية العربية منذ فجر الإسلام. وكما يرى المؤرخ فيليب حتي: «كانت من بين العوامل الحاسمة التي أدت إلى تفتت وسقوط العديد من الدول الإسلامية.»

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

وبالرغم من أن العصبية هي في المقام الأولى من الخصائص البدوية كما أسلفنا، فإنها انتقلت من البيئة البدوية إلى البيئة الحضرية من خلال شكل آخر هو العائلة والتلاحم النَّسَبِي. وتتمتع روابط القرى -العائلية منها في الأساس- بسلطة فائقة في كافة نواحي المجتمع العربي التقليدي. وبقيت هذه الروابط محافظة على تأثيرها حتى في أوساط من يغادر موطن عائلته ويسكن لسنوات في مدينة بعيدة أو بلد آخر. ويقدم المهاجرون اللبنانيون صورة توضح ذلك من خلال ما يرسلونه لأهلهم بانتظام من مبالغ مالية، ولا يقتصرون في ذلك على القرابة المباشرة إنما يتعدونها إلى من ينتسب إلى العائلة وإن بَعُد نسبته. ولي صديق عربي قرأ مرة خبرا في الصحف عن أحد أبناء عمومة الرئيس الأمريكي نيكسون والذي كان يتلقى معونات الرعاية الاجتماعية. فعلق على ذلك باستغراب كبير قائلا أنه لا يستطيع أن يتخيل حدوث شيء كهذا في بلده: لأن مساعدة ابن العم وغيره من الأقارب واجب أخلاقي مثله مثل مساعدة الأب لابنه.

وفي سبيل إطلاق تعميم أوسع يمكننا القول أن عصبية المجتمع القبلي العربي القديم استطاعت البقاء، على المستوى العملي، بنفس الشكل والشدة ضمن أوساط البدو العرب الذين تغير نمط حياتهم بشكل طفيف في بعض الجوانب. وحيثما تقتحم الحداثة مكانا ما، تجد التلاحم العائلي والقبلي يدخل مرحلة التلاشي التدريجي. ويمكن ملاحظة الضعف التدريجي ذاته الذي يصيب الأنماط التقليدية الشديدة من تلاحم الجماعة وهو يصيب المجتمع العربي الحضري أيضا. وانطلاقا من أن الحداثة أكثر تقدما في المدن مقارنة بالقرى، فإن قدرا أكبر من تلاحم الجماعة تتم المحافظة عليه في القرى مقارنة بالمدن. ومع ذلك، فحتى في أوساط عوائل النخبة العربية المتحضرة المتأثرة بالغرب، لا تزال دعوى القرى أقوى من أي دعوى يعرفها الغرب. ويمكننا أن نداوم على وصف الثقافة العربية بأنها «ثقافة قرى» ولا يزال الطابع «العائلي» يميزها كما كان في الماضي.

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

5. احترام النفس

يقترَب مفهوم الشرف واحترام النفس من بعضهما البعض بحيث يكاد المرء لا يميز بينهما، إن كافة الأفعال والأقوال والأحداث التي لا تتفق مع الأعراف المتوافق عليها. وبأى تواتر حصلت، تؤدي إلى الحط من الشرف، وقد تصل إلى حد فقدانه. وهذه بدورها، أي تقليص أو تدمير الاحترام الذي يتمتع به في عيون الآخرين، لها بالنتيجة أثر مشابه في النهاية على احترام النفس. وإذا ما تعرض الشرف للأذى، فلا بد من بذل جهود كبيرة لاستعادة وضعه الأصلي. وإذا ما فقد المرء شرفه، فيكاد لا يجد سبيلا لإرجاعه. ويعتبر الشرف ملكية تعود لأفراد العائلة ويشارك الجميع في صناعتها: فإذا قام أحدهم بعمل مشين. لحق العار بالعائلة أجمعها. والحال هذا يشبه طوف نجاة تستقله العائلة وتبحر به في خضم أمواج خطيرة لبحر هائج هو المحيط الاجتماعي. فكلما التزم جميع أفراد العائلة بقوانين العرف، كلما كان هذا الطوف القلق أقدر على إيصالهم إلى بر النجاة. ومع ذلك، يمكن لأي حركة لإرادية تصدر عن أحد أفراد العائلة، ومهما صغرت، أن تؤدي إلى ثقب في الطوف الهش، وبذلك يفرق الجميع.

مما سبق يتبين أنه على البالغين في العائلة أن يحرصوا على أن لا يقترف أي فرد من العائلة ذنبا يلحق الكارثة بالجميع. وعليهم أن يتأكدوا -قبل كل شيء- من أن سلوكهم خال من الأخطاء من خلال المحافظة -وبأى ثمن كان- على المظاهر الخارجية التي يفرضها قانون الشرف. وبعد ذلك تأتي المهمة الأصعب المتمثلة في المحافظة على شرف نساء العائلة، وهي مهمة ينبغي على الرجال القيام بها، أو أن يشرفوا عليها بدقة على الأقل، وذلك لأن النساء ضعيفات جدا على أن يعتمد عليهن في مسؤوليات صعبة كهذه. وسيتم مناقشة هذا الموضوع المهم وشديد الحساسية في الفصل الثامن.

إذا ما فُقد الشرف، فُقدت الكرامة. والعلاقة ما بين هذين المفهومين، بالإضافة علاقتهم باحترام النفس، يمكن تمثيلها بأحسن تمثيل من خلال نظرية أحجار الدومينو. فعندما

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

تفقد امرأة شرفها. يفقد الرجال في عائلتها شرفهم. مما يؤدي إلى فقدانهم كرامتهم. وهذا يؤدي بدوره إلى فقدان احترام النفس. إذن: ما الذي يمكن فعله عندما يتعرض المرء إلى تهديد بفقدان الكرامة؟ أولاً. إذا كان التهديد متعلقاً بفقدان امرأة لشرفها. فإن الأعراف تقدم العلاج التقليدي: على رجال العائلة (إخوتها أو أبيها) أن يقتلوا. وإذا فعلوا ذلك برهنوا للجميع أنهم قطع العضو المهين من جسم العائلة. وذلك يتيح للجسم أن يتعافى وينجو. وتالياً. قد يحاولون قتل عشيقها. وذلك ثأراً لما تسبب به من إزهاق روح فرد من عائلتهم.

بما أن الكرامة تستند إلى الاحترام الذي يحصل عليه المرء من الآخرين. فإن تعرضه للإهانة يلحق الأذى بكرامته. ولاستعادتها كما كانت. ينبغي عليه أن يبدي ردة فعل هائلة: وذلك بأن يرد على الإهانة بإهانة أشد ليري الجميع أنه لا يصبر على الإهانة. وأنه «يثور» ضدها. وأنه ينهض ويسخر كل طاقته للرد على الهجوم. إن من يتحلى باحترام النفس لا يسمح لأي كان بأن يهينه دون أن يلقي العقاب. ومن خلال قيامه بالدفاع عن كرامته. يفرض على الآخرين احترامه. وبذلك يستعيد احترام النفس.

وبما أن احترام النفس عرضة إلى هذا الحد لتدخل الآخرين. فإن العرب حذرون جداً من أن يتعرضوا للاستصغار ويجدون إهانات شخصية حتى في الملاحظات والأعمال التي لا تحمل أي نية بذلك. وفي ذلك أورد الباحث السويدي توري نوردينستام (Tore Nordenstam) في كتابه (الأخلاقيات السودانية) أن التعليق الساخر أو الناقد الذي يوجهه الأستاذ لتلميذه يفسر على أنه إهانة. كما يعتبر ترفيع المسؤول ذو المرتبة الأدنى إهانة للمسؤول الذي يعلوه مرتبة. وعندما طلب قائد الجيش الأردني غلوب باشا من حاجبه أن يأخذ زوجته لمشاهدة استعراض عسكري رد عليه غاضباً: «هل تظن أنني ممن يجلس مع النساء؟» فمن خلال وضعه لقائده في مكانه. استطاع الحاجب أن «يثور» على الإهانة ويحفظ شرفه.

نستنتج مما سبق: أن الأخلاق العربية تحوم حول نقطة مركزية واحدة. وهي احترام النفس وتقديرها. وأكثر العوامل أهمية في المحافظة على ذلك هو السلوك الجنسي

العقل العربي

الفصل السادس: القيم البدوية

للنساء اللواتي يعد العربي مسؤولاً عنهن: البنات والأخوات. وأدى هذا الموقع المركزي لشرف المرأة أو «العرض» إلى أن يتضخم هاجس العفة الجنسية للنساء ليصل إلى شكل استحواذي مفرط في الشدة. أما العاملان الآخران اللذان يستند إليهما احترام النفس عند العرب فهما متلازمتا (الشجاعة-الإقدام) و(حسن الضيافة-الكرم). وبغض النظر عن الهدف المباشر للحفاظ على احترام النفس، فإن كافة هذه الصفات قد وجدت أصلاً لخدمة الهدف الأكبر المتمثل في تعزيز المصالح، وصولاً إلى الهدف النهائي: بقاء الجماعة.